التجربة الأخيرة

صالح محمد المطيري
- السعودية -

ضحك أصغرهم واستلقى على ظهره من شدة الضحك ، ثم رفع رأسه إليهم وقال :

- أظنها ستكون آخر مرة ، يا إلهي ! هذا أطرف مشهد رأيته في حياتي .

تابعه آخر ، جاء فجلس إلى جواره :

- فعلا ، بالتأكيد ، ستكون آخر مرة .

لف الخجل المطبق زميلهم الجالس أمامهم، يتصبب العرق من وجهه ، ويشكل خطوطا بمحاذاة صدغيه . ويحلق بعينيه الهلع الواجم الذي باحت به نظراته الزائغة وتعابيره المضطربة ، وقسماته الغارقة . وحالته العامة ، التي انحدرت إلى الحضيض .

واصل الأخير كلامه بنفس اللهجة :

- احذريا عزيزي الخبير ، والمتفنن الخريت ! لم تكد تسلم الجرة هذه المرة !

أيده الأول فقال بلهجة ساخرة معقبا :

- نعم ، انتبه ، يا مولاي ، لا تلعب بالنار ! إذ إنها ربما تحرقك وتبيدك وتحولك إلى رماد ، أو يصيبك منها بعض الشرر على أقل تقدير .

وختم كلامه بضحكة مرة أخرى :

- أرجو أن تكون موعظة عظيمة !

ماذا حدث ؟وما معنى هذا الكلام الذي يتضاحك فيه ثلاثتهم على رفيقهم الذي كان يتنفس الصعداء بملامحه التي وسمها الخوف ، ومرغها الفزع الرهيب ؟ لقد كانت تجربة خطيرة لم يمر بها طوال حياته .

كانت الطبيعة منسوجة بأبهى حلل الربيع ، ومزدانة بأحسن ما جاد به الغيث ، واهتزت به الأرض ، فأنبتت من كل زوج بهيج . وامتدت مساحة الخضرة والعشب لتصل ما بين العين والأفق ، هناك قرر أربعتهم القيام برحلة قنص ، في هذا الطقس الممتع والبساط الأخضر الممتد ، وأية فرصة أنسب من هذا الوقت ، الذي قلما يتكرر في عدد من السنين ؟

قام كل منهم بجمع ما كلف بإحضاره ،

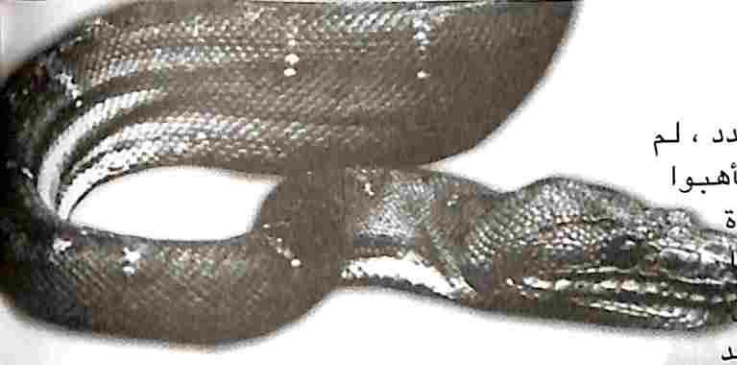

واتفقوا على المجيء في اليوم المحدد ، لم تمض مدة قصيرة حتى تجمعوا وقد تأهبوا للمسير ، انطلقوا في طريقهم بسيارة أحدهم ، بعد مرور ساعات قليلة كانوا قد وصلوا إلى مكانهم المقصود ، كان الوقت بعيد غروب الشمس ، وقد راعهم توافد الليل بحشوده المظلمة . أنزلوا أمتعتهم وشرعوا في نصب خيمة أحضرها أحدهم ، كانوا قد أصابهم بعض التعب من جراء المسافة التي كانت بعيدة نوعا ما ، لذا قرروا تغيير برنامجهم المقرر قليلا ، وقضاء تلك الليلة في السمر والاسترخاء ، ثم الخلود من بعد ذلك إلى النوم .

كان الجو باردا في الخارج ، خصوصا مع تقدم الليل وهبوب الهواء ، دخلوا جميعهم في الخيمة الصغيرة ، وانحسر كل منهم في فراشه الذي جهزه بنفسه . كانت الخيمة مضاءة من الداخل بسراج ذي ضوء خافت ، ظلت ذؤابته المشتعلة تقاوم الهواء الآتي من الخارج في دفعات تكاد تذهب بلهبه ، فيعطي الداخل ضوءا متماوجا يجيء ويذهب ، عندما اطمأن كل في فراشه اقترح أكبرهم إطفاء النور المنبعث من السراج حتى يتيسر النوم لهم بسرعة ،

لا ، طبعا ، مستحيل !

اعترض أحدهم بلهجة حازمة . واصل :

– مستحيل أن أنام بدون إضاءة ، خصوصاً في مثل هذه البرية المقفرة !.

استند الأول على المخدة وقال :

– ياسلام ، ياطفلي الصغير ! إذا كنت لاتنام من دون إضاءة ، أو أنك تخاف من الظلام ، فلماذا رافقتنا إذاً في هذه الرحلة المظلمة ؟

رد المعترض قائلاً :

– أرجوكم ، لا ، ليبق مشتعلاً هكذا بصورة خافتة ، على الأقل لنميز ما قد يدب في الداخل من هذه الصحراء المفعمة بالحشرات وخشاش الأرض.

في الصباح قاموا من نومهم مبكرين ، بعد تعرضهم في آخر الليل لموجة برد مزعجة ، تسللت إلى داخل الفراش ، وجعلت كلاً منهم يتكوم على نفسه في فراشه ، في محاولة لدرء مغبة البرد.

بعد نهوضهم من النوم أوقدوا ناراً وبدؤوا في إعداد وجبة الفطور ، وعندما انتهى إعداده اتخذوا مجلساً حول النار ، وجعلوا يتناولون فطورهم على أصوات رشفات الشاي الساخن ، والذي جعل له البرد والصحراء مذاقاً خاصاً. بعد ذلك جهزوا معدات الصيد ووضعوها في السيارة ، ثم تحركوا من موقعهم وشرعوا في رحلة القنص.

تجولوا في المناطق المجاورة بحثاً عمّا قد يجدونه من الصيد ، وما يصادفهم من حيوانات برية وزواحف وطيور. لقد استمتعوا من التجوال كثيراً ، واستطلعوا عدداً من التضاريس والتشكيلات الصحراوية ، وغنموا كمية من الصيد تكفي لإعداد عشاء لذيذ بعد ذلك السير والتجوال.

وفي الأيام التالية استمروا على هذا المنوال من الخروج كل صباح والعودة مساء بعدد وفير من الصيد ، كلٌ منهم كان منسجماً ومرتاحاً لمزاولة هذه الهواية التي تقضي أحياناً مهارة في التصويب ، ومتابعة في الروغان السريع ، وخبرة في مطاردة القنائص . الغريب في الأمر أن واحداً منهم كان له هواية غريبة ....

كان مغرماً بصيد الثعابين التي يراها أمامه في الصحراء ، حيث كان يحمل معه عصا ذات نهاية طرفية على شكل مثلث مفتوح القاعدة. وكان يأتي للثعبّان وهو متمدد ومسترخ في الضحى مستمتع بدفء

الشمس الذي تنفثه في جسمه ، فيضع نهاية العصا على رأسه ويهوي إليه بيده فيمسكه ، ترى ماذا يفعل به بعد إمساكه ، وماذا يريد من اقتناص هذه الآفة المسترخية بسلام في شروق الشمس ؟

كان يأخذه ، ثم يقبض على فكيه بإصبعه، ويرتق فمه بخيط وإبرة اتخذه معه لهذا الغرض. بعد ذلك يصبح الثعبان مأمون العاقبة ، فلا يمكنه فتح فمه ولا لدغ ضحيته باستعمال أنيابه.

والأعجب من ذلك كله أنه يضعه داخل قميصه مما يلي جسمه. وقد يجمع أكثر من ثعبان في اليوم الواحد ، وفي المساء يعود مع رفاقه الثلاثة إلى الخيمة. وكان قد عرف بينهم بمزاحه الثقيل الخارج عن المألوف أحياناً ، ويحلو له أن يمارس معهم شيئاً من هذا المزاح. يأتي إلى زميله النائم على فراشه ، أو المضطجع على شقه محاولاً الحصول على شيء من الراحة ، فيلقي عليه أحد ثعابينه فجأة ، فيصاب الزميل بالذعر ويقفز من فراشه هلعاً وهو يصيح : ثعبان ! ثعبان !.

مقابل ذلك كان صاحبهم ينخرط في ضحك طويل ، قائلاً في سخرية :

– حقاً ، يالك من جبان! أتخاف من ثعبان مكمم الفم ؟!

فيجيبه مردداً أنفاسه في صدره :

– يا الله !انظر كيف يتحرك وكأنه طليق لا يعوق حريته شيء. إن مجرد رؤيته على هذه الحال تصيبني بالفزع والقشعريرة ، يا إلهي ! انظر كيف يتلوى بحرية !

وتكرر مثل هذا المزاح الثقيل ، والذي يكاد يطير بالألباب أكثر من مرة ، ومع أكثر من زميل ، وعندما طفح الكيل ، ولم يعد يتحملون مثل هذا الترويع ، واجهوه بهذه الممارسة التي تثير الذعر ، ورجوه مخلصين أن يكف عن هذه الهواية الغريبة ، بالطبع ، وكما هو مألوف عنه ، قابل رجاءهم بالضحك وعدم المبالاة، ورميهم بشتى صنوف الخوف والرهبة.

مضى قدماً في مثل تلك الممارسة ، مستمتعاً بها هو نفسه ، ومروعاً بها زملاءه ومر على ذلك أيام ليست بالكثيرة ، إلى أن حدث شيء ما ...

خرج في الصباح كعادته ، وأمضى سحابة يومه في البحث والصيد ، مزاولاً هوايته المفضلة ، وفي المساء عاد إلى الخيمة ومعه حصيلة من صيد اليوم ، عدد من الثعابين التي وثق أفواهها وحشرها في قميصه الداخلي ، استعداداً للعب بها مع زملائه ، عندما وصل إلى الخيمة وجدهم مشعلين ناراً للتدفئة ، وقد تحلقوا حولها يحتسون الشاي ، ويتحدثون عن رحلة اليوم وما حازوا من صيد ، وما رأوا من مناظر بديعة رائعة وغيرها .

جاء وجلس بينهم مقابل النار ، ملتمساً هو الآخر بعض التدفئة :

– آه كم أنا في حاجة إلى شيء من الدفء بعد هذا اليوم الشديد البرودة !

قال ذلك وهو يعرض يديه على النار ويفركهما بشدة كمن يريد أن يسري دفؤهما في سائر جسمه. ظل قرابة الساعة وهو ينعم بالدفء جوار رفاقه. بعد ذلك نظر إليه أحدهم وكادت الدهشة تعقل لسانه.

كان هناك ثعبان يخرج رأسه على استحياء من جيب ثوبه ، فاتحاً فمه ومشرعاً لسانه! لاحظ هو ذلك فتجمد في مكانه.

– ابق ساكنا ، لا تتحرك البتة !

بادره زميله الذي رآه ، نظر بقيتهم إلي، واستولت عليهم الدهشة كذلك ، كان

الثعبان يخرج رأسه قليلا من الثوب ثم يعود أدراجه إلى الداخل . لقد وقع صاحبهم في موقف عصيب ، وظل جامدا في مكانه كالصنم لا حراك له إلا دوران عينيه في محجريهما ، وتردد أنفاسه في حلقه الذي جف من الرهبة وبدأ وجهه يحمر ، وتصبب العرق البارد من صفحة جبينه وطرف صدغيه. يا لها من معضلة! كيف الخروج منها الآن ؟ ومما زاد الموقف تعقيداً أن أحدهم تغير فجأة كمن تذكر شيئاً غاب عن ذهنه ، وكاد أن ينطرح إلى الخلف من كثرة الضحك والقهقهة ، لابد أنه ربط بين هذا الموقف العصيب والمحنة الشديدة ، وبين مزاحه السابق معهم. لكن أكبرهم والذي يبدو أكثر رزانة زجرهم قائلاً :

– أرجوكم ياشباب ، فكروا بواقعية ، إنها فعلاً مشكلة ، يجب حلها بتعقل وحكمة . إنها مسألة دقيقة ، تحتاج إلى احتراس وتؤدة. فكروا في حل مأمون.

انتبه أصغرهم ، وكان مرحاً لهذه الملاحظة الأخيرة فقال ضاحكاً :

– عفواً ، ياعزيزي ، الذي أعرفه جيداً أن هذه المعادلة مستحيلة الحل في (ح) !.

– أرجوك كف عن تعليقاتك الساخرة وفكر بجدية. هيا بسرعة شغل مخك ولو مرة.!

علق الثالث ، والذي بدأ يفكر عميقاً :

– فعلاً معضلة ! وتحتاج إلى حل دقيق وسريع في نفس الوقت ، قبل أن يفعل الثعبان ما لا تحمد عقباه. لكن انتبهوا ، سرعة العمل مهمة في هذا الجانب ، لكن العجلة كذلك ممكن أن تلحق أضراراً فادحة ! تصرفوا بروية!.

سكت الأخير هنيهة ، ثم أردف ناظراً إلى صاحبهم أمامه :

– هاهو قد أخرج رأسه مرة ثانية. آه لدي فكرة ! ما رأيكم لو لفّ أحدنا على يده قطعة من الخيش أو أي قماش غليظ ثم خطف بها رأسه عندما يخرجه هكذا ؟

وجموا لحظات يتأملون ما قال الأخير ، لكن لم يلبث أكبرهم أن قال :

– فعلاً فكرة جيدة ، ولكنها لا تخلو من مجازفة !

– كيف ؟

– ماذا لو فشلت المحاولة؟ سيكون صديقنا ضحيتها الأولى بالطبع !

عقب الأصغر :

– لكن المسألة كلها مجازفة في مجازفة ! لماذا لا نفعل ذلك ؟ إنه أفضل من تركه بين الحياة والموت.

ابتدره الأكبر موضحاً :

– أعرف يا أخي ، ومن قال إننا سنتركه هكذا. لكن ياجماعة فكروا في حل مأمون النتيجة.

اعتملت أفكارهم مرة أخرى بحثاً عن حل آمن ، وزميلهم واجمٌ في مكانه لا يريم ، قد بلغت منه المشقة والعنت أقصاها.

– مارأيكم في سكب ماء بارد داخل جيب ثوبه ؟

أثار الأصغر هذا الحل ، فأجاب الثالث ، والذي كان جالساً جواره :

– سيتجمد صاحبنا بالتأكيد ، وسينزل الثعبان إلى أسفل ، وربما لدغ أثناء اضطرابه. لا يا أخي ، بقاؤه فوق آمن من نزوله أسفل !

أخيراً توصلوا إلى نتيجة. قال أكبرهم مسلماً :

– يبدو أن خطف الثعبان باليد هو الوسيلة الوحيدة !.. ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

حدجوه بأبصارهم بهذه الكلمة ، تابع :

– الثعبان لا يخرج بقدر كاف لإمساكه

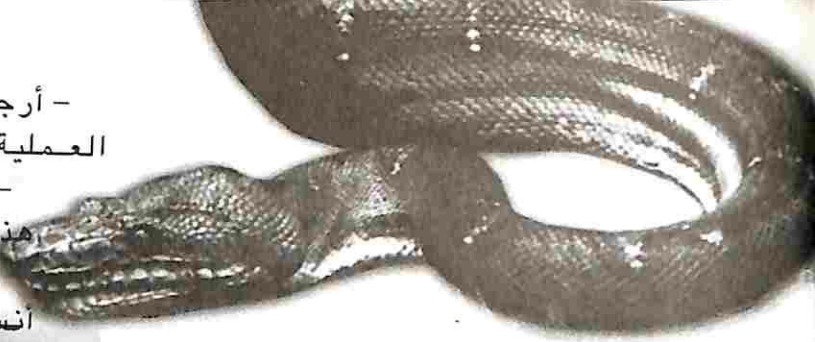

بسرعة وبدقة!

– وكيف ذلك؟

– أعني حبذا لو أمكن إخراجه بصورة تسمح بإمساكه بعيداً عن مكامن الخطر في صديقنا ، مثل العنق والوجه وإمكانية رجوعه إلى الداخل مرة ثانية.

– فعلاً ، هذه هي النقطة !

لاحظ الثالث على كلامه مؤيداً.

بعد الموافقة على هذه النتيجة الأخيرة ، بادروه بالسؤال :

– ولكن كيف يتسنى لنا إخراجه بصورة كافية ؟

سكت الكبير لحظات ، ثم أجاب :

– حسنٌ ، لقد لاحظت أن الثعبان يخرج رأسه كلما أحس بوهج النار يتجه إليه وينفث حرارته.

– بمعنى ؟

بمعنى أنه كلما ازدادت الحرارة في الداخل أخرج رأسه إلى الأعلى ، ربما هرباً من الاختناق في الداخل.

قال الثالث مؤيداً :

– آه ، تماماً ، لقد لاحظنا ذلك أيضاً ، لكن ماذا ترى ؟

انتظر قليلاً ، ثم أجاب :

– اقترح يا شباب أن يقترب من النار شيئا فشيئا حتى تؤذي الحرارة الثعبان في الداخل ويحاول الخروج بصورة أكثر من ذي قبل . عندها يمكن لأحدنا اختطافه بعيدا عنه .

– فكرة لا بأس بها ، دعونا نحاول ، ولكن من سيتبرع باختطافه ؟

عرض كل منهم نفسه ليقوم بهذه العملية لإنقاذ زميله ، وتقطعوا أمرهم بينهم ، ولكن الأصغر كان أكثرهم إصراراً على موقفه :

– أرجوكم ، كفى سأقوم أنا بهذه العملية !

– ولكنك قلت إنك لا تفهم في مثل هذه المعادلات الصعبة !

– آه ، حسن ، لقد جاء وقت الجد ! ثم أنسيتم أني من أحسنكم في سرعة التصويب ودقة التسديد ؟

قام أكبرهم وقال :

– إذن خذ هذا القفاز الثقيل وأحكم ربطه على يدك .

أخذه منه ولبسه وأحكم ربطه ، ثم هب واقفا مقابل زميله المغلوب على أمره :

– هيا اقترب من النار شيئا فشيئا ، تحرك ببطء شديد ،لا تشعر الثعبان بحركتك ، ثم أنتم ! ابتعدوا جانباً كي لا أرميه عليكم عنما يطيش صوابي وأمسكه بين أصابعي !

– احترس !

– لا تقلقوا ، فقط لحظة وينتهي كل شيء.أرجوك أنت ، أغمض عينيك ، أو انظر إلى السماء. نعم هكذا. هذه المرة إما أن يخرج الثعبان أو تخرج روحك..آه ، حسن ، لا بأس ! معذرة يا صديقي !

بعد لحظات بدأ الثعبان يخرج عنقه شيئا فشيئا إلى الأعلى ، وصاحبهم مغمض عينيه يتصبب العرق من وجهه . والثعبان يصعد بإزاء رقبته ثم إلى الأعلى بمحاذاة أنفه ، وهو يتلمظ بلسانه المشقوق الذي يخرجه من فمه ، ويتئد في ارتقائه. عند ذلك رأى زميله المتأهب قبالته أن الثعبان قد خرج بما فيه الكفاية ، وخشي فوات الفرصة ، ثم بسرعة البرق – توقفت أنفاس صاحبيه – أهوى عليه بطرف يده ، على مؤخر رأسه ، وقبضه بإحكام فألقاه بعيداً إلى الخارج وهو يصيح :

– خذوه !

قام إليه أحدهما بسرعة وقتله بعصا أعدها له.

استلقى صاحبهم إلى الخلف وهو يتنفس الصعداء ويقول : أخيراً ، الحمد لله.